نادين غورديمير..

بين نوبل و التمييز العنصري

هناك في أرض جنوب أفريقيا مَهْد مناجم الذهب و في إيست لاند بالقرب من جوهانسبرغ وُلِدت نادين غورديمير في عشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٣ من أصول يهودية.

كيف وصل الجنس الأبيض إلى جنوب افريقيا ؟

تعود جذور الاستيطان إلى القرن السابع عشر الميلادي و هُم أقليَّة بيضاء من الفرنسيين و الألمان و الهولنديين و خلال القرن التاسع عشر الميلادي احتُلت جنوب أفريقيا من طرف الإمبراطورية البريطانية، و قاوم السكان من الأفارقة السود الذين هم الأغلبية

المستوطنين البيض الذين هم اقليَّة و يُمثّلون المُستعمِر البريطاني، إلى أن حصلت البلاد على استقلالها عام ١٩١١.

و الذي يهمنا في مقالنا هذا هو نظام الأبارتيد، و هو نظام سياسي عنصري انتهجته الأقليّة البيضاء الحاكمة في جنوب أفريقيا من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٩٠ و هي الفصل أو التمييز العنصري بين المستوطنين البِيْض و تفضيلهم على السكان السود أصحاب الأرض.

نادين غورديمير هي من السُكّان البيض، نشأتْ في بيئة بورجوازية قضت طفولتها و مراهقتها في الاطلاع على كلاسيكيات الأدب العالمي، و نهلت من أفكار دوستويفسكي و مارسيل بروست و غي موباسان و تشيكوف، بدأتْ الكتابة في سِن مُبكّرة و نشرتْ أعمالها في عِدَّة مجلات أمريكية، عام ١٩٤٩ نشرت أولى مجموعاتها القصصية (فحيح الحيَّة الخافت)، و أصدرت خمس عشرة رواية، و خمس عشرة مجموعة قصصية، و ثلاثة أعمال نقدية، كانت مرآة ما قرأتْ من الكتب و ما لبثت أن حوَّلتْ مسار قلمها إلى ما يدور من حولها و تفتَّح وعيها عمَّا يجري من أحداث،

و ما لاحظته من تفرقة عنصرية و ظلم و قهر و اعتقال، و تمحورت كتاباتها عن العلاقات الإنسانية، فناضلتْ من أجل رفض كل أشكال الظلم و القهر و العنصرية، فنادت بالتصدِّي للإرهاب و مناصرة كل قلم مُعبِّر عن بشاعة و قسوة الظلم، ليولد أدب جديد لها ينهض في مواجهة العنصرية، فمُنِعَتْ كتبها من النشر لعِدَّة سنوات، لتصبح ناديين غورديمير رمزًا للنضال ضد كل أشكال التميز و القمع و المنع العنصري.

فازت بجائزة بوكر عام ١٩٧٤، و تُوِّجَتْ بجائزة نوبل عام ١٩٩١، و تُعتبَر عضوًا بارزًا في الحركة المناهضة للتمييز العنصري التي كانت تحت قيادة المناضل الكبير نيلسون منديلا، و أشادت بدوره المنوط ضد التمييز العنصري، و كانت مُهتمَّة بالوضع الثقافي العربي حيث عاشت مُعجبة و مُهتمَّة بأعمال الكاتب المصري الكبير نجيب محفوظ، و كانت على علاقة وطيدة معه، و قد قرأت أعمالة و كتبت سيرته الذاتية لتصبح أعز صديقة له، و قد تُرجِمَتْ بعض أعمالها إلى اللغة العربية منها «العالم البرجوازي الزائل» و «ضيف شرف».

الكتابة عند ناديـن غورديمـير تعبـير عـن الـذات السـاخطة و الرافضـة لـكل عنصريـة و قهـر، و كانـت تأمـل في قيـام انتفاضـة لإزالـة كل أشـكال الظلـم و الابتـزاز و عـبَّرَتْ عـن كل هـذا مـن خـلال روايتهـا «شـعب يوليـو».

كتاباتهـا ذات أسـلوب كلاسـيكي لكونهـا نهلـت مـن منبـع الكلاسـيكيات حيـث نجـد الـسرد القصـير و حضـور الأماكـن بقـوة في كتاباتهـا بـما تمتـاز بـه الطبيعـة الأفريقيـة مـن مناظـر خلابـة، سـاندت أيضًـا القضيـة الفلسـطينية، لكـن تلبيتهـا للدعـوة الإسرائيليـة لسـتينيَّة قيـام دولتهـم المزعومـة و تصريحهـا في حـوار قالـت فيـه بـأنَّ حـل الدولـة الواحـدة لا يمكـن و فكـرة الدولتـين هـو الحـل الأنجـح، هـذا إن دلَّ عـلى شيء فهـو يـدل عـلى عـدم إدراكهـا و وعيهـا و فهمهـا للقضيـة الفلسـطينية.

روايتهـا «شـعب يوليـو» الصـادرة عـام ١٩٨١ التـي نوَّهَـتْ بهـا لجنـة نوبـل تتمحـور حـول قيـام انتفاضـة مـن السُـكّان السـود ضـد البِيـض مـن وحـي خيـال الكاتبـة، فـرار عائلـة بيضـاء عائلـة «سـميلر» المُكوَّنـة

مـن الأب «بامفيـلاد» مُهنـدس معـماري، و الأم «موريـن» و الأطفـال «فيكتـور» «جينـا» و «روبيـس»، فـرُّوا عنـد خادمهـم الأسـود المُخلِـص «يوليـو»، للعيـش معـه هروبًـا مـن شرارة الثـورة التـي قـام بهـا السـود السـكان الأصليـين ضـد الحكومـة البيضـاء، و مكـث سـميلر و عائلتـه عنـد الخـادم، لتنتهـي الروايـة و لم تغـادر العائلـة القريـة، وهـذا إشـارة مـن الكاتبـة لوجـوب التعايـش السـلمي بـين الأجنـاس و قبـول كل طـرف للطـرف الآخـر بـكل تناقضاتـه.

و قـد تُوفيَـتْ نادين غورديمـير في مدينـة جوهانسـبرج في ١٣ مـن يوليـو عـام ٢٠١٤ عـن عمـر يناهـز تسـعين عامًـا تاركـة وراءهـا رصيـدًا إبداعيًّـا ضخـمًا مـن الروايـات و المجموعـات القصصيـة و الأفـكار التـي تناهـض و ترفـض كل أشـكال التمييـز العنـصريّ.

نادين غورديمير